

(جوانب من إبداع الفيلسوف ابن حزم الظاهري في فلسفة التاريخ والحضارة والاجتماع)

د/ سعد عبد السلام

قسم علم النفس والفلسفة

جامعة الجلفة

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على بعض الإسهامات الفلسفية التي قدّمها المفكر الموسوعي والفيلسوف: (ابن حزم الظاهري الأندلسي) في مجال العلوم الاجتماعية والانسانية، باعتباره ممهداً لمرحلة التنظير للكتابة التاريخية وفلسفة التاريخ والحضارة والاجتماع، حيث تأثر به كثيرون، من أبرزهم (ابن خلدون) الذي أخذ عنه منهجيته وطريقته في نقد الروايات التاريخية والظواهر الاجتماعية والحضارية.

كلمات مفتاحية: فلسفة الحضارة، الاجتماع، التاريخ، ابن حزم، الظواهر التاريخية والاجتماعية والحضارية.

Résumé:

Cet article vise à faire la lumière sur l'historique des contributions faites par le penseur apparent encyclopédiste andalou (Ibn Hazm) (456H/1063j) en présentant des modèles de compréhension et d'interprétation des événements historiques auxquels a repris l'étude et l'analyse, selon le programme d'études historique de en plus de la philosophie de l'histoire. Ibn Hazm peut être considéré comme un représentant de la théorie des écrits historiques, de nombreuses personnes se sont influencés notamment Ibn Khaldoun, qui a pris sa méthode dans sa critique du roman historique et sociologique, unissant entre la systématique et la raison dans la synergie et la complémentarité.

Mots-clés: civilisation - l'écriture historique - philosophie de l'histoire sociologie - Ibn Hazm

تمهيد :

يعتبر علي بن أحمد بن حزم (384هـ-456هـ/994م-1064م) « أفحل ذهنٍ إنبثقت عنه الأندلس في جميع عصورها، فهو الذهنية الفريدة التي تُمثل الثقافة الأندلسية أصدق تمثيل، ولست أرى هذه الميزة لآخر سواه... » (" ابن حزم ورسائله في المفاضلة بين الصحابة " سعيد الأفغاني، 1940م، ص.150).

فقد كان من كبار المفكرين الموسوعيين، جمع بين الفقه والكلام والأصول، ونبغ في الأدب والفلسفة والمنطق، والتاريخ والنفس والاجتماع، كما ألف في الفرق والحضارة والأديان. « ولم تكن صفة المؤرخ لدى أبي محمد -ابن حزم- صفة عارضة إجمعت إلى جانب صفاته الأساسية الأخرى، وهي أنه فيلسوف من أعظم فلاسفة الشرق والغرب، ولكننا نستطيع القول: إن صفة المؤرخ هي أيضا من صفات ابن حزم الأساسية، ويمكن أن يُصنّف بكتابه: "جمهرة أنساب العرب" وحده في عداد أكابر المؤرخين. » (مقال: " ابن حزم الفيلسوف الأندلسي الذي أرّخ لمجتمع الطوائف " محمد عبد الله عنان، يونيو 1964م (ص.80). كما أرّخ في مصنفه الضخم: "الفصل في الملل والاهواء والنحل" تأريخا لاهوتيا مقارنا للأديان، مع إشارات تاريخية لمذاهب النصارى واليهود وغيرهم، إضافة إلى كتبه الأخرى في تاريخ الأنساب والتاريخ السياسي وغيرها. (" في فلسفة الحضارة " عفت الشرقاوي، ص.177).

المنهج التاريخي عند ابن حزم :

يقول ابن حزم مشيدا بنبوغه في علم التاريخ:

وإن شئت أخبار الدهور فإنني أنا جامع التاريخ مذ نبت الهضب (" تاريخ الأدب الأندلسي " إحسان عباس، 1975م، (ص.75) و" ديوان ابن حزم " (ص.79).

صحيح أنّ ابن حزم لم يضع أيّ مؤلف خاص في التاريخ ولا في الحضارة ولا في الاجتماع، وهو ما أدّى إلى تضارب آراء الباحثين حول تحديد أهمية وقيمة ما كتبه ابن حزم في هذه التخصصات؛ ففريق يرى أن التاريخ والحضارة والاجتماع، لم يأخذ إلا حيزاً ضيقاً من مؤلفات ابن حزم؛ في حين ذهب فريق ثانٍ إلى التأكيد على أنه يُعدُّ من أكابر المؤرخين المرموقين، أمثال الطبري والمسعودي، وبكونه ليس مؤرخاً عادياً، بل هو مؤرخ من طراز نادر، حاز على صفات الصدق والضبط والدقة وقوة الملاحظة، وغيرها من الصفات التي جعلت منه راويةً أميناً ومؤرخاً نزيهاً، إضافة إلى تحليلاته للمجتمعات البشرية والمظاهر الحضارية. (" جذوة المقتبس " للحميدي، 1966م (ص.239) و" طبقات الأمم " لصاعد، ط.1986م (ص.102) و" نفع الطيب " للمقري، ط.1968م (6/402) و" ابن حزم الأندلسي... " زكريا إبراهيم، ط.1966م (ص.206) و" رسائل ابن حزم " مقدمة إحسان عباس، 1987م (2/7-8) "ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري" عبد الحليم عويس، ط.1988م).

ومن ذلك مثلاً: الصدق والضبط وقوة الذاكرة والذكاء والدقة، وقوة الملاحظة وحسن الاستدلال وجودة الاستنباط، وربط الأحداث بعضها ببعض، كل ذلك جعل منه راويةً أميناً ومحققاً نزيهاً، فلا غرو إذن أن يُطلق عليه كبار النقاد والمؤرخين في هذا العصر لقب: "المؤرخ". "ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري" عبد الحليم عويس، ط.1988م (ص.198-213). صحيح أن إنتاجه التاريخي من حيث الكم لا يرقى إلى مستوى المؤرخين المشهورين، غير أنّ ذلك لا يمنعنا من القول بأن رسالة: "نقطة العروس" تُعدّ أبرز

نموذج لكتابه التاريخية. ("نقط العروس" لابن حزم، تحقيق: شوقي ضيف، ط. 1951م.) وهي ضمن: "رسائل ابن حزم" بتحقيق: إحسان عباس (43/2). فقد كان همُّ ابن حزم التاريخي كامناً في البحث عن القانون التاريخية والاجتماعية والحضارية، والقيمة الحقيقية للتاريخ عنده تنكشف عندما تتم صياغة خلاصات وقواعد تاريخية صحيحة من مجموع الوقائع والأحداث، بحيث تكون لهذه الخلاصات القدرة على أن تلمّ بمدى تأثير الماضي في الحاضر ثم على المستقبل. ولقناعة ابن حزم بأهمية التاريخ وحبّه الشديد له دفعه للعناية به. "رسالة مراتب العلوم" ضمن: "رسائل ابن حزم" (72/4-73).

لذا فإنه ليس من قبيل المصادفة أن يعدّ ابن حزم مؤرخاً متميّزاً، ودارساً للحضارة والمجتمع، فقد اجتمعت له من الصفات الذاتية والموضوعية ما أهّله ليكون رائداً من رواد التاريخ الإسلامي. وحيث أنّ التاريخ أو- علم الأخبار-؛ ومن ثمة يُعتبر من أجلّ وأكمل العلوم عنده، فقد قسّمه إلى أصناف خمسة: «... علم الأخبار ينقسم على مراتب: إما على الممالك أو على السنين وإما على البلاد وإما على الطبقات، وإما منثوراً؛ وأصحُّ التواريخ عندنا تاريخ الأمة الإسلامية...» كما أنه عدّ علم النسب جزءاً من علم الخبر، ولأجل ذلك ألّف: "جمهرة أنساب العرب". "الرسائل" لابن حزم (78/4-79-80).

ومن هنا فإن نزعتَه التاريخية تتجلى من خلال التراث التاريخي الذي تركه. « ونحن نستطيع أن نعتبر مصنّفه الجامع: "الفصل في الملل والأهواء والنحل" تاريخاً مقارناً للأديان والمذاهب الدينية... ولم تخلُ معظم رسائله ومؤلفاته من الإشارات التاريخية والحضارية والاجتماعية ذات المغزى، خاصة كتابه: "طوق الحمامة" الذي يشير في مواطن عديدة منه إلى حوادث تاريخية واجتماعية ومظاهر حضارية عاصرها، كما تحوي كتبه الأخرى مجموعة من النواذر التاريخية المدهشة، والنظائر والحضارية والاجتماعية التي يقتضي اقتناصها وتنسيقها مقدرة فائقة، ومعرفة شاملة بمختلف التواريخ.

وأما المادة التاريخية فهي موجودة في مؤلفاته ورسائله، ومنها: "نقط العروس" و"أمهات الخلفاء" و"في جمل فتوح الإسلام" و"في أسماء الخلفاء" و"في فضل الأندلس" و"طوق الحمامة" و"جوامع السيرة". « فقد أرخ في مصنّفه الضخم: "الفصل" تاريخاً لاهوتياً مقارناً للأديان، مع إشارات تاريخية لمذاهب النصارى واليهود وغيرهم... كما أن له كتباً أخرى في تاريخ الأنساب والتاريخ السياسي. ("في فلسفة الحضارة" عفت الشرقاوي (ص. 177) و"المقال السابق ل: محمد عنان (ص. 81).

ولّا جدال في أن مناهج البحث تعتبر من أخصب الحقول الفلسفية في العصر الحديث، ويعتبر نقد النص من أهمّ الأسس المحورية لمنهج البحث التاريخي، لذلك بذل علماء المناهج جهدهم في تقنين أصول هذا النقد المنهجي للنصوص، ووضع الضوابط الضرورية له، ومن ثمة تطبيقها على الوثائق والروايات. ومما هو معروف لدى الباحثين في التاريخ والحضارة والاجتماع، قيام المناهج التاريخية والاجتماعية والإنسانية على قاعدتين أساسيتين: النقد الخارجي والنقد الداخلي، حيث يستنطق الباحث الوثيقة التاريخية للتأكد من صدقها، ويتبين مصادرها والطرق التي حُفظت بها، وكيفية روايتها ووصولها للمؤرخ، مع ضبط صحة الرواية ومضمون النصوص، وخلوّها من التناقض ونحو ذلك. ومع أن مصطلح المنهج بمعناه العلمي لم يظهر إلا حديثاً، لكنّ دلائل وإشارات منهجية عديدة تؤكد وجوده لدى المفكرين القدامى. ولهذا يمكننا أن نعتبر ابن حزم من رواد الفكر التاريخي والاجتماعي في تاريخ الإنسانية؛ بل إنه "رائد هذا النوع من البحوث في الفكر الإنساني كلّ" على حدّ تعبير مؤرخ الأديان الفرنسي: لابلوييه. (لابلوييه: "الدراسات المقارنة للأديان" (108/1).

ولعل أوضح مثال على ذلك، هو نقد ابن حزم لتوراة اليهود وتطبيقه لمنهجية النقد التاريخي على نصوصها. وهو في هذا المنهج الذي اتبعه، لا يبتعد كثيراً عن منهج النقد التاريخي الحديث، وإن لم يكن قد استخدم ذات المصطلحات الحديثة؛ لكنه في الواقع كان واعياً تمام الوعي بخطوات المنهج وطريقة تطبيقها على المادة التاريخية والاجتماعية التي كانت بين يديه؛ خاصة وأنه يُعَدُّ من حُفَاط الحديث؛ بل ومن أئمة الجرح والتعديل، حيث طُبِّق قانون الجرح والتعديل في دراساته للأخبار والنصوص، وعلى الملل والنحل، والأمم والمجتمعات والحضارات التي تعرّض لدراستها، وكما كان النقد منهجاً لعلماء الحديث. «... فإنه طُبِّق أيضاً عند المؤرخين المسلمين، وكان يطلق على هذا الإتجاه مدرسة النقد التاريخي؛ حيث كان المؤرخون يتزعمونها». ("توراة اليهود والإمام ابن حزم الأندلسي" عبد الوهاب طويلة، ط. 2004م، "منهج البحث بين التنظير والتطبيق" حامد طاهر، ط. 2007م (ص. 91-92) و"ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري" عبد الحليم عويس، و"في فلسفة الحضارة" عفت الشرقاوي (ص. 322). فلا غرو إذن أن يستخدم ابن حزم هذا المنهج، موظفاً له في نقد الخبر المرتبط بالمجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية، مخصّصاً لذلك فصولاً عديدة من كتابه الموسوعي: "الفصل" لنقد الأخبار والروايات التاريخية؛ وبهذا المنهج انبرى ابن حزم لنقد اليهود والنصارى الذين أسسوا تاريخاً أسطورياً مليئاً بالتزوير والتحريف والتصحيف، كاشفاً عن حقيقته، مبيناً تهافتة. كما ناقش ابن حزم التوراة مناقشة نقدية من جوانبها: التاريخية والحضارية والاجتماعية، كاشفاً عن التناقضات والأكاذيب الموجودة في نسخ التوراة. ومن ثمة أتيج له أن يجمع بين نقد أئمة الحديث في توثيق الأخبار، حيث أفاد ابن حزم من طريقة أهل الحديث التي تعتمد على نقد السند والمتن، وبين نظرة أهل الفلسفة والمنطق في استخدام العقل، ومنهجية التفكير الفلسفي في قبول أو رفض الروايات والنظريات، فهذان الرافدان الثقافيان كان لهما الأثر الواضح على أحكامه التاريخية، ومن نافلة القول التأكيد هنا على أهمية الخبر بالنسبة للمذهب الظاهري. («الفصل في الملل والأهواء والنحل" لابن حزم (1/56-280) و"رسائل ابن حزم" (3/83-70) وتنظر مقدمة إحسان عباس لـ"لرسائل" (2/13-15).

كما استعان بمجموعة من المعارف، أو ما يطلق عليه في مناهج البحث الحديثة بالعلوم المساعدة، أي التي تساعد الباحث على بلورة الموضوع الذي يتناوله من أجل الوصول إلى النتيجة المطلوبة. فالمنهج الذي أمده به علم الحديث منهج يتحرى الدقة، فتلبّست به روح المنهج الحديثي ووجهت فكره التاريخي، إضافة إلى جانب اشتغاله بالعلوم العقلية: الفلسفة والمنطق، مما مكّنه من أن يتكوّن لديه ذلك الخيال الفكري الذي يسمّونه: "صابون التاريخ" والذي يضفي على العمل التاريخي وزنه وأهميته، ويتيح للمؤرخ النظر إلى الحادثة من زوايا مختلفة؛ بل ويجعله أقدر على القياس. «... ويعتبر قياس الماضي على الحاضر في مجال التاريخ بصفة خاصة إنجازاً هاماً لدى ابن حزم، وهناك احتمال كبير في أن ابن خلدون أفاد من ابن حزم في هذه الفكرة». "منهج البحث..." لحامد طاهر (ص. 111) ذلك أنه من المعروف لدى المؤرخين أن ابن خلدون (ت. 808هـ) دَوَّنَ نظرياً منهج البحث التاريخي لكنه مع ذلك لم يطبقه واقعياً ولم يرتفع به إلى مستوى النظرية التي وضعها، بل دعا لاتباعها عند دراسة الوقائع التاريخية والحضارية، إلا أن مؤرخاً واحداً فقط وعلى امتداد القرون الثمانية الأولى من تاريخ الإسلام، هو الذي اعتمد منهج النقد التاريخي في كتاباته أكثر من ابن خلدون، هذا المؤرخ الناقد الوحيد هو ابن حزم؛ حيث كانت كتاباته في التاريخ مائعة، توقّرت فيها مقومات التأليف في التاريخ، وأهمها: القدرة على نقد الروايات التاريخية سنداً وممتناً. وقد انتظم منهج النقد هذا، وظهر جلياً من خلال ردّه للكثير من الروايات المزيفة والأساطير، فكانت طريقة أهل الجرح والتعديل؛ إضافة إلى الفلسفة والمنطق والإحصاء والاقتصاد وغيرها من العلوم، أبرز أدواته التي دكّ بها مزاعم خصومه، وهو ما لم يستطع ابن خلدون ذاته أن يلتزم به؛ وعلى الرغم من وضعه لنظرية النقد التاريخية إلا أنه لم يستطع

استحضارها في تاريخه. ولذلك عُدَّ ابن حزم نموذجاً للتوثيق، إحتذى به العديد من المؤرخين أبرزهم ابن خلدون الذي أشاد به في قوله: «... وقد أبطله إمامُ النَّسَائِينَ والعلماء ابن حزم...» («العيبر...» لابن خلدون، ط. 1971م (79/6) ("ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري" عبد الحليم عويس، ط. 1988م (ص. 165)، و"رسائل ابن حزم" مقدمة المحقق: إحسان عباس (12/2).

ثم إن الخبر التاريخي عند ابن حزم، إما أن يكون صادقاً وإما أن يكون كاذباً، وكل ما نُقِلَ لابدَّ له من مقياس يُتَبَيَّن به الخبر الصادق من الكاذب. «فلم يبق إلا أن من الخبر حقاً وباطلاً فإذا كان كذلك، بطل أن يعلم صحة الخبر بنفسه، إذ لا فرق بين صورة الحق منه وصورة الباطل، فلابدَّ من دليل يفرق بينهما، وليس ذلك إلا لحجة العقل المفترقة بين الحق والباطل.» ("الإحكام في أصول الأحكام" ابن حزم، ط. 2004م (16/1). فهذا النص يفيد أن المقدمات الإخبارية التي تتسق مع العقل تنتج موجبة صادقة، وما ينتج عن القضايا المتصلة بالمشاهدات والتجارب صادق كذلك، والخبر الذي يورده صادقٌ قامَ بِصِدْقِهِ برهان صحيحٌ ضرورةً، والخبر الذي يورده مجتمعون تواتراً صحيحٌ أيضاً؛ ومن هنا نرى أن صدق الخبر لا يتوقف على صدق مضمونه أو متنه فحسب؛ بل وأيضاً على صدق الذي جاء بموجبه ما نتحقق من صدق دعواه. ("ظاهرة ابن حزم الأندلسي" أنور الزعبي، ط. 1996م (ص. 106).

ولا سبيل إلى رفض أو تكذيب ما ينقله الكواف ولا توهيمهم، لأن الوهم والكذب ممتنع فيهم، أي في الروايات الجماعية؛ وحدَّ الكافة أو الإجماع عنده، إثنان فما فوق، على شرط عدم تواطئهما، أي اتفاقهما وتفاهمهما على رواية الكذب. «لأن الكافة التي يلزم قبول نقلها هي إما الجماعة التي يوقن أنها لم تتواطأ، لتناؤد طرقهم وعدم التفاهم وامتناع اتفاق خواطهم على الخبر الذي نقلوه عن مشاهدة، أو رجع إلى مشاهدة ولو كانوا إثنين فصاعداً... فما نقله أحد أهل هاتين الصفتين عن مثل إحداهما، وهكذا حتى يبلغ إلى مشاهدة. فهذه صفة الكافة التي يلزم قبول نقلها ويضطر خبرها سامعها إلى تصديقه... وأما أن يكون عدد كثير، يمتنع منه الاتفاق في الطبيعة على التمادي على سنن ما تواطئوا عليه، فأخبروا بخبر شاهدوه ولم يختلفوا فيه... فهذه صفة الكافة التي يلزم قبول نقلها ويضطر خبرها سامعها إلى تصديقه. وسواء كانوا عدولاً أو فساقاً أو كفاراً وما عدا هذا من الخبر فليس بكافة...» ("الفصل... لابن حزم (14/1-15-65-66) أي أن الحقيقة التاريخية لا تكون حكراً على مجتمع دون آخر، ولا على طائفة أو ديانة دون غيرها؛ بل إنها إذا استوفت في نقلها شروط الصحة أمكن الإعتماد عليها. وعليه فإنَّ الحوادث التاريخية لا سبيل إلى إنكارها، وإنما يركز قبولها على نقل الكافة، وبذلك يكون ابن حزم قد اعتمد على منهج نقدي للرواية التاريخية، اختطه بناءً على مقارنات وإحصاءات مستفيضة، وأدلة عقلية.

فالمعرفة التاريخية والاجتماعية تأتينا عن طريق الخبر الشفوي أو الكتابي، ويُتأكَّد من صحتها تجريبياً وعقلياً، أي أن التثبت من صدقها يعتمد على أوائل الحس والعقل. «... تدخل صحة المعرفة بما صحَّحه النقل عند المخبر تحقيق ضرورة، كعلمنا أن الفيل موجود ولم نره، وأن مصر ومكة في الدنيا، وأنه كان عيسى وموسى ومحمد عليهم السلام... وكوقعة صقين والجمال... مما لا يجد المرء للشك فيه مساعاً عنده أصلاً...» ("الرسائل" لابن حزم (286/4).

فما أشار إليه ابن حزم هنا، من الحديث عن المسائل الإخبارية المنقولة بطريق التواتر، وهي أمور يُصدَّق بها لأنه لا يصح في مثلها المواطأة على الكذب، كضرورة تصديقنا بوجود أمصار وإنَّ لم نشاهدها، وكعلمنا بوجود أنبياء وفلاسفة على الرغم من عدم رؤيتنا لهم؛ فبالضرورة يعلم أنها حق متيقن مقطوع به، وحقيقة لا مماحكة فيها. ("الفصل... لابن حزم (14/1-15).

لذلك نجد الفقيه والفيلسوف والمؤرخ الظاهري يعلن عن اعتماده على العقل، فالعقل عنده هو المعيار الدقيق للتثبت من صحة الروايات التاريخية، والأخبار التي وصفت الحضارات والمجتمعات السالفة، وحتى تقوم دراسة التاريخ على أسس موضوعية وافية كافية.

فابن حزم المؤرخ الواقعي الذي لم يعتد إلا بشهادة الحس والعقل، هو بعينه أيضا ابن حزم فيلسوف التاريخ الذي أراد أن يقيم دراسة الوقائع التاريخية على أسس موضوعية دون تجاوز لأوليات الحس والعقل. وقد جمع بين منهجي: النقل والعقل في تأزر وتكامل، موقنا بأن هذا هو المنهج الصحيح للبحث؛ أي أنه جمع بين المنهجين الضروريين: منهج التحقيق في السند وتقييم الرواة، ومنهج النظر في النص-المتن- من حيث المحتوى، لأن التاريخ يستدعي كمًا هائلا من المعلومات ووعيا واسعا بمجموعة من المعارف. وليس هذا فحسب؛ بل نقدتها وتمحيصها، وإعادة تحليلها وتركيبها للاستفادة منها وجعلها فاعلة، ولهذا أخضع الخبر لميزان العقل، فلم يُسلم بكل ما ورد من الأخبار؛ بل قام بتمحيص الخبر التاريخي، لأن ذلك من مهام المؤرخ، وهذا ما نلاحظه جلياً من خلال عرضه لآراء الفرق والملل التي ناقشها في كتابه: "الفصل"، حيث تتجلى براعة ابن حزم الفيلسوف المؤرخ، من حيث الدقة البالغة في تحليل النصوص واختيار الرواية الصائبة بعد النظر والنقد والمقارنة مع الاختصار والاستيعاب، مما يتيح للقارئ مواصلة القراءة بنوع من الاستمتاع والانبساط، والاستزادة من المعارف التاريخية والاجتماعية والأدبية والدينية

فشهادة الحس وتحكيم العقل من أسس فلسفة التاريخ عنده، وهذه العناصر هي التي سيؤكددها ابن خلدون بعده بثلاثة قرون ونصف؛ فقد كان يشعر شعورا واضحا، بأن الحاضر ثمرة الماضي، وأن المستقبل لن يكون إلا صدى للماضي والحاضر، وكل ذلك قد أتيج لابن حزم أن يقوم به. لذلك فإن منهجه النقدي تميّز بالأحكام القاطعة، نتيجة اعتماده على المذهب الظاهري في توثيق سند الرواية ومتمنها، وبأخذه بأسلوب التحليل المنطقي العقلي، مما حقق له قدرا كبيرا من الثقة في نتائج دراساته. ("جمهرة أنساب العرب" لابن حزم، أنظر مقدمة المحقق (ص.13) و"جوامع السيرة" لابن حزم (ص.10) و"ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري" عبد الحليم عويس (ص.172) و"منهج البحث بين التنظير والتطبيق" لحامد طاهر (ص.110-111)

ولعل من أبرز صور الدقة العلمية في منهج البحث التاريخي عند ابن حزم، لجوؤه للإحصاءات وأبرز مثال على ذلك: "رسالة نقط العروس" حيث لن تجد لها مثيلاً ولا نظيراً قط في كتب المؤرخين. «فقد حشد فيها كثيرا من الحقائق التاريخية في لوحة بديعة، مشحونة بالإحصاءات بطريقة ظريفة واهتم فيها بلغة الأرقام، وجعلها من أدوات بحثه التاريخية في سابقة لا نظير لها بين المؤرخين... وهو بمنهجه هذا يثبت صدق برهانه وسعة اطلاعه.» ("ابن حزم في البحث" عبد الحليم عويس (ص.229-235)، و"ابن حزم ومنهجه في دراسة العقائد والفرق الإسلامية" منشء خلف، ط2002م (ص.206). لهذا لم تصمد كثير من أخبار الأمم الأخرى أمام انتقاداته، حيث خلّص إلى أن التاريخ الإسلامي هو أصحّ التواريخ، وأما تواريخ الأمم الأخرى فإن تاريخها لا يرقى إلى صدق وصحة التاريخ الإسلامي. «فأصحّ التواريخ عندنا تاريخ الملة الإسلامية. فالطالب للأخبار ينبغي له ألا يشتغل إلا بما أعلمناه بصحته، ولا ينبغي له قطع وقته بما لا يجدي عليه نفعاً... فقد كفيناه التعب في ذلك.» ("الرسائل" لابن حزم (80-79/4).

فالمنهج التاريخي عنده يقوم على ضرورة فهم الخبر التاريخي ونقده لتخليصه من الشوائب والأوهام. وقد استعان ابن حزم في سبيل تحقيق ذلك بالجمع بين المنطق والإحصاء والمقارنة، للتثبت من صحة الأخبار التاريخية؛ لذلك أكد بعض المعاصرين على أن ابن حزم امتلك كل صفات المؤرخ وفيلسوف التاريخ، بمحاولته تفسير التاريخ واستخلاص القوانين التي تحكم حركة التاريخ، والتنبؤ

العقلي بحدوث وقائع تاريخية مستقبلا، وفق ما اصطلح عليه حديثا: فلسفة الحضارة وفلسفة التاريخ وفلسفة الاجتماع. ("جوامع السيرة" لابن حزم، أنظر مقدمة: إحسان عباس (ص.10-12) و"ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري" عبد الحليم عويس (ص.172) و"تفسير التاريخ علم إسلامي" عبد الحليم عويس، ط.1998م (ص.15-17).

استنتاج:

لقد استشرف هذا البحث محاولة الوقوف على جهود ابن حزم في فلسفة التاريخ والحضارة والاجتماع، وإن مشاركته الفعلية في تدوين الحوادث التاريخية والاجتماعية وفلسفتها، أثبتت بما لا يدع مجالا للشك، جدارته في هذه التخصصات. ومن ثمة يمكن الحكم عليه ووصفه بأنه كان مؤرخا وفيلسوبا عظيما في التاريخ والنفس والاجتماع، كما كان إماما من أعظم أئمة التفكير الإسلامي... فلم تكن صفة المؤرخ لدى أبي محمد صفة عارضة اجتمعت إلى جانب صفاته الأساسية الأخرى، وهي أنه فيلسوف من أعظم فلاسفة الشرق والغرب. فقد جاء التاريخ محققا لكثير من تنبؤاته، إذ دب الفساد في أوصال دويلات الطوائف، وما لبثت أن انهارت تحت سيف ملك قشتالة، وهو مصير كل أمة يدب فيها سوس الفساد. «على أن أهمية ابن حزم لا تقف عند كونه مؤرخا، أو في ما قدّمه من مصنفات تاريخية تتسم بروح الدقة والنزاهة والأمانة... وإنما هي تمتد أيضا إلى ملاحظاته المنهجية في مضمار فلسفة التاريخ والاجتماع والحضارة. ("ابن حزم" زكريا إبراهيم (ص.221-229) و"ابن حزم الفيلسوف الأندلسي الذي أنجز لمجتمع الطوائف" مقال: محمد عبد الله عنان (ص.81) و"نوابغ الفكر الإسلامي" أنور الجندي، 1979 (ص.229) و"المدخل لعلم الاجتماع الإسلامي" مصطفى الفوال، 2000م (ص.192) و"معجم الفلاسفة" جورج طرابيشي، 1987م (ص.19) و"ابن حزم..." لمحمد أبو زهرة (ص.179) ولهذا يعتبر أهم من ظهرت لديه تفسيرات تاريخية واضحة في هذه الحقبة، وهو يذهب شأنه شأن سائر المؤرخين المسلمين المتقدمين إلى أن للتاريخ فائدة، أو غاية يمكن أن تستخلص جوانبها من وراء الدراسة المتأنية للأحداث والوقائع. ("تفسير التاريخ علم إسلامي" عبد الحليم عويس (ص.108). ولعل من أبرز الذين تأثروا بابن حزم، نجد ابن خلدون، الذي كان يصف ابن حزم بإمام المؤرخين، وقد أخذ عنه طريقته في نقد الرواية التاريخية؛ بل والغريب في الأمر أن الأمثلة التي اعتمدها ابن خلدون ليُبين بها ما يعرض للمؤرخين من الأوهام والأغلاط، أخذها عن ابن حزم، كما اقتبس منه أيضا سبل نقد وإزالة هذه الأوهام وتفنيدها. وليس إهمال هذا الأخير، وعدم اعترافه بفضل ابن حزم، إلا لأنه كان يميل إلى البربر وينقم على العرب، كما كان مالكيًا وأشعريًا متعصبا، في حين كان ابن حزم يميل للعرب، وظاهريا متشددا يمجت المالكية والأشعرية. ("ابن حزم وجهوده..." عبد الحليم عويس (ص.166-169-190-197) و:"التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون" عبد الحليم عويس، ط.1996م (ص.84).

وبعد فقد نتفق مع أبي محمد - ابن حزم - وقد نختلف معه، ولكننا على أية حال يجب أن نعترف له بالفضل في كل الأحوال. فقد قاد المحاولات الأولى لفهم وتفسير الحوادث التاريخية والاجتماعية والحضارية، وإن تعريفه للتاريخ وللمنهج التاريخي ليدهننا، إذ أنه يقترب مما نعرفه اليوم؛ ولئن لم يطبق كثيرا من اقتراحاته الجزئية في كتاب خاص، فإن ذلك لا يسلبه فضل التعبير عنها بدقة ووضوح؛ إنه يمثل بحق مرحلة التنظير للكتابة التاريخية على نحو منهجي، ليصبح على يد من جاء بعده قوانين يستخلص منها فلسفة التاريخ وعلم العمران البشري وعلم الاجتماع وفلسفة الحضارة.

مسرد المصادر والمراجع:

- 1- ابن حزم: "الإحكام في أصول الأحكام" دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 2004م.
- 2- "جوامع السيرة" تحقيق: إحسان عباس، دار المعارف، القاهرة.
- 3- "الرسائل" تحقيق: إحسان عباس، نشر المؤسسة العربية، بيروت (ط. 1987م).
- 4- "القَصْلُ في الملل والأهواء والنحل" دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط. 2002م
- 5- "نقط العروس" تحقيق: شوقي ضيف، نشر جامعة فؤاد الأول، القاهرة ط. 1951م.
- 6- ابن خلدون: "المقدمة" تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار الفكر، بيروت، ط. 1401هـ.
- 7- حامد طاهر: "منهج البحث بين التنظير والتطبيق" دار نهضة مصر، القاهرة، ط. 2007م
- 8- إحسان عباس: "تاريخ الأدب الأندلسي" دار الثقافة، بيروت، ط. 1، 1975م،
- 9- أنور الزعبي: "ظاهرة ابن حزم الأندلسي" المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان ط. 1996
- 10- أنور الجندي "نوايغ الفكر الإسلامي" ، دار الرائد العربي بيروت، 1979
- 11- زكريا إبراهيم: "ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي" دار المصرية، القاهرة، 1966م
- 12- محمد الشرقاوي: "منهج نقد النص بين ابن حزم الأندلسي وأسينوزا" دار الفكر العربي القاهرة.
- 13- عبد الحليم عويس: "ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري" الزهراء للإعلام، القاهرة ط. 1988م
- 14- مجلة: "العربي" مقال: "ابن حزم الفيلسوف الأندلسي الذي أرخ لمجتمع الطوائف" بقلم: محمد عبد الله عنان، العدد: 68، يونيو 1964م (ص. 80).